

تطوير التعليم : 2-2

التعلم الإلكتروني شناعة المجتمع التربوي

تحاول كثير من الأمم إصلاح نظمها التربوية بهدف إعداد مواطنيها لعالم موجه بالتقنية، و ما يتطلبه ذلك من مهارات مختلفة عن تلك التي خبرها الإنسان في عقود مضت. لهذا، استقطبت الإصلاحات التربوية المعتمدة على التقنية (Technology - Based Educational Reforms) دعماً سياسياً ومالياً ضخماً في العديد من دول العالم المتقدمة والنامية على حد سواء.

تحاول هذه الإصلاحات إحداث تحوّل (جوهرى) في النموذج التربوي : من نموذج موجه بواسطة المعلم (أو المدرسة) ومعتمد على الكتاب كمصدر وحيد للمعرفة، إلى نموذج موجه بواسطة المتعلم ومعتمد على مصادر متعددة. وبعبارة أخرى، التحول من ثقافة الحفظ والتلقين إلى ثقافة التفكير والممارسة ، أو من نموذج النقل (Transmission Model) إلى النموذج التحويلي (Transformative model) . في النموذج الأول، يأتي الطالب بالمعلومات التي سمعها من المعلم أو التي قرأها في الكتاب، أي أن الطالب يقدم إجابات أعدها الغير لأسئلة أعدها الغير أيضا. وعلى النقيض من ذلك، يتوقع من الطالب في النموذج التحويلي أن يذهب إلى ما وراء المعلومات المعطاة له، أي أن الطلاب يعملون على مشاريع أو مشكلات ويأتون بحلول فريدة تعبر عن شخصياتهم ومنهجياتهم في تصميمها . وإذا كان التربويون عموماً يتفوقون على ضرورة هذا التحول، إلا أن الجدل والاختلاف يرتكزان حول الكيفية التي ينبغي أن تستجيب بها مدرسة المستقبل لإحداث هذا التحول. التربويون (والتقنيون)، كل منهم يحاول رسم معالم صورة مدرسة المستقبل من منظوره الخاص. ومع ذلك، تركزت أغلب وجهات النظر حول الإصلاح التربوي على استثمار معطيات التقنية المعلوماتية لإحداث التحول المنشود . هذا الاتجاه إيجابي ومرغوب ولكنه غير كاف، وهو في الوقت نفسه اتجاه غير مستغرب، فهو حدث يتكرر مع كل تقنية جديدة: الأفلام في الثلاثينات والأربعينات من القرن الماضي، والتلفاز في الخمسينات والستينات من القرن نفسه، والفيديو في السبعينات، فالحواسيب الدقيقة في الثمانينات . الآن ونحن في حضم المحيط المعلوماتي، تظهر التوقعات مرة ثانية حول مستقبل التعليم. فما أن بدأ فجر المعلوماتية ، حتى تسابق التربويون والتقنيون على اقتناء شبكاتهما وأجهزتهما وأدواتهما، ظناً منهم في تبسيط غريب لظاهرة معقدة مثل التربية ، أنه بمجرد إدخال الحواسيب وشبكاتهما إلى المدرسة، ستحسر مشكلة التربية بغضها وقضيضها، وأن فجرًا تربويًا جديدًا ومغايرًا لكل أشكال التربية التي عرفها الإنسان يلوح في الأفق ، حتى بدت تقنية الحواسيب والاتصالات عن بعد " الملك غير المتوج " في جهود الإصلاح التربوي على امتداد العالم الفسح، وأصبح تقنيو الحواسيب والشبكات ومسوقوها نجومًا لامعة في هذه الجهود. مع هذا كله، الذي يتغير في نظر الكاتب هو التقنية فقط، أما الفكر التربوي فيبقى تقليدياً في طرحه برغم مرارة وقسوة دروس الماضي البعيد والقريب الخاصة بدمج التقنية في التعليم. فالملاحظ أن التقنية دائماً ما تحتل الصدارة في التخطيط التربوي، على حساب المنظور الشامل للتغيير التربوي (Systemic Change) الذي يعني بجميع مكونات المشروع التربوي. إن تأسيس الإصلاح التربوي المعاصر على

التقنية ليس خطأً بحد ذاتها، ولكن الخطأ الذي يتكرر مع كل تقنية جديدة هو النظر إلى أن التقنية (لوحدها) قادرة على إحداث التغيير المنشود، في غياب التخطيط الاستراتيجي المنطلق من رؤية واضحة لمحفزات التحول في النموذج التربوي، والمبادئ المشتقة من النظريات التربوية المعاصرة التي ينبغي أن تصمم نظم التعلم الإلكتروني والمناهج الرقمية في ضوءها. ولذا لا غرابة أن تصبح المدرسة ميداناً لتجارب مكلفة، القليل منها فقط كان له بعض التأثيرات الإيجابية، ولكنها تأثيرات لم تصل إلى جوهر المشروع التربوي (التعلم الصفي)، ولذا، لم تكن قادرة على إحداث تحول ملموس في النموذج التربوي.

وكما تقول عالمة النفس جين هيلي في كتابها " فشل الاتصال " (Failure to Connect, 1998) بلغة ساحرة من المطالبين بتبني التقنية في التعليم دون بصر وبصيرة: " الكل ركب القارب، فلماذا لا نركبه حتى وإن لم نعرف الجهة التي يأخذنا إليها".

في السياق نفسه، يشير بعض التربويين (Merrienboer, et., al.,2004,p.13,21)، إلى إن العديد من تطبيقات التعلم الإلكتروني ذات جودة منخفضة من منظور أصول علم التدريس، ومن هذا المنظور، يعد التعلم الإلكتروني خطوة للوراء بدلاً من كونه خطوة للأمام، لأن التركيز في التخطيط التربوي غالباً ما يكون على التقنية في غياب مبادئ علم التدريس. كما يشير آخرون إلى أن العديد من مشاريع التعلم الإلكتروني ليست أكثر من " ضخ للمعلومات، وتصفحاً إلكترونياً، ومحاضرات تقليدية على الشبكة العنكبوتية " (Tan & Ritchie & Hoffman,1997, P.135). Hung,2002,p.48. صحيح أن العروض الحاسوبية لمواد التعلم والتعليم أكثر تشويقاً وجذباً لانتباه المتعلم، خصوصاً لأجيال عصر المعرفة من المتعلمين الذين تشكل حياتهم حالياً في بيئات إلكترونية، ولكن هذا التشويق وقي لأنه ناتج عن كون هذه العروض جديدة عليهم وهو ما يعرف بآثر الجدة (Novelty)، ولكن سرعان ما يزول هذا التأثير بعد تعودهم عليه. لهذا، فإن التقدم التقليدي لمادة التعلم بواسطة التقنية لن يختلف عن التدريس التقليدي الحي، وستبقى معضلة الحفظ والتلقين، لأن المادة التي كان يقرأها الطالب من كتاب أصبح يقرأها الآن من شاشة الحاسوب.

المتفائلون بدور التقنية في التعليم يذهبون بعيداً في توقعاتهم. لويس بيرلمان في كتابه المثير للجدل: "تلاشي المدرسة" (School's Out, 1992) يجادل بأن: "المدارس اليوم قد ألت للزوال، وأن الطريق الوحيد لمواصلة المسيرة هو مسح النظام الحالي كلياً...بل أن المدارس بوضعها الراهن، تمثل عقبات بوجه التغييرات الضرورية". هذا موقف متشدد ومفرط في التفاؤل. من ناحية أخرى، يؤكد المتشائمون بأنه على الرغم من استثمار مبالغ ضخمة في الحواسيب، إلا أنها ستنتهي إلى دور جانبي في قاعة الدراسة، كما كان حال التلفاز التعليمي، وسيبقى التعليم المدرسي دون تغيير. هذا موقف متشدد ومغرق في التشاؤم.

الكاتب ليس مع الرأي الأول ولا الثاني، ولكنه في موقف وسط بينهما، موقف يبارك فيه التربويون استثمار تقنية المعلومات والاتصال لنقل المدرسة من ثقافة التلقين (وعسكرة) المدرسة وقاعات الدراسة إلى ثقافة التفكير والعمل في فريق، والتعلم الموجه ذاتياً، والتعلم الإيجابي.. الخ. ولكن هذا الموقف الوسطي له استحقاقات عديدة في جوانب التنظيم والتخطيط والإدارة والسياسات وتفويض الصلاحيات وتصميم نظم التعليم والتعلم الحديثة التي تتطلب مهنية عالية من قبل تربويين لديهم فعلاً ما يقدمونه في مجال تطوير المناهج وأساليب التدريس انطلاقاً من الفكر التربوي المعاصر، وليس من اجتهادات شخصية أو أوراق تربوية صفراء تصلح لأرشفة التاريخ التربوي، ولكنها بالتأكيد غير

والخطط التقنية لتفعيل إستراتيجية الدمج في الدول المتقدمة، سياركون ما ذهبنا إليه من أن الفكر التربوي المعاصر بكل ما يتضمنه من استحقاقات في الجانبين النظري والتطبيقي يأتي مقدماً على الجانب التقني. وبعبارة أخرى، الاستراتيجيات والمبادئ المشتقة من ذلك الفكر هي التي ينبغي أن توجه إستراتيجيات وخطط دمج التقنية في التعليم وليس العكس، وهذا يعني صعوبة تصور حدوث المؤسسات التربوية الإلكترونية للقرن الحادي والعشرين بمجرد إضافة التقنية، فهذا سوف يزيد فقط من التكاليف ويهمش استخدام التقنية. كذلك تؤيد العديد من التطبيقات المعاصرة في المجال ما ذهبنا إليه، أنظر على سبيل المثال لا الحصر: المدارس الذكية (Smart Schools,1996)، ليركن (Perkin) و الأدوات الذهنية (Mind Tools) لجوناسون (Jonassen,2000)، والتمهين المعرفي ليرمان (Berryman,1991)، ونماذج البيئات الغنية للتعلم النشط (Grabinger,1996)، و التعليم في سياقات حقيقية (CTGV,1990)، وغيرها.

بناء على ما تقدم، يبدو للكاتب أن ما يجري حالياً من تراحم نحو بوابات التعلم الإلكتروني في العديد من الدول ومن بينها مشاريع التعلم الإلكتروني في المملكة لأحداث التحول المرغوب المشار إليه سابقاً دون إعداد البيئة الحاضنة لهذا التحول وتوفير جميع استحقاقاته الضرورية، ما هو إلا شائعة للمجتمع التربوي يهرب بمشكلاته المستعصية عبر تلك البوابات الإلكترونية إلى مشكلات جديدة. باختصار، ما لم نفعّل العلاقة الوثيقة بين العوامل الثلاثة المذكورة أعلاه، سيبقى تأثير التقنية على فاعلية وكفاءة النظام التعليمي هامشياً، مما يعني كثيراً من الهدر المادي والمعنوي. أخيراً، نختم المقال بالمقولة الشهيرة لريتشارد كلارك في العام 1983م: " إن تقنيات التعليم والمعلومات هي قنوات لنقل التعليم، مثلها مثل العربات التي نستخدمها لنقل البقوليات من محلات البقالة، الذي يؤثر بثقافتنا الغذائية هو محتوى هذه العربات والطريقة التي نستهلكه بها"، وهذه إشارة واضحة إلى محوريات العمليات والأساليب المتبعة في تصميم خبرات التعلم وتعليمها وتعلمها، وهو ما يذكرنا بأهم وأول مبادئ علم الجودة الذي يقول: إن العمليات الجيدة مخرجاتها جيدة والعمليات الرديئة مخرجاتها رديئة.